الفصل الثالث

وصفة فى التعبير عن الذات

كانت الساعة الحادية عشرة ليلا، وقد عدت لتوى إلى المنزل من اجتماع طبى ممتع وإن كان متعبًا.

وقابلتنى زوجتى بالباب وقالت: «إنك مطلوب للكشف على جون داى فقد ابتلعت جرعة كبيرة من الحبوب المنوّمة». ولم يكن أمامى إلا أن أعود أدراجى إلى سيارتى لأعمل ما فى الوسع عمله.

كانت الآنسة داى شابة فى سن معقولة وممثلة سينمائية ناجحة إلى درجة غير معقولة (وهذا الاسم من عندى حتى لا أذيع اسمها فهى ذائعة الصيت). وقبل أن تبلغ الخامسة كان والداها قد دفعا بها إلى التمثيل. وقد دخلت فى مباراة قومية للجمال، وهذا أدى بدوره إلى أن تصبح نجمة، وأن يكون لها وسيط للدعاية ومدير أعمال موهوب ومنتج داهية وأمينة سر حاذقة كانت تتصرف فى المجموعة الهائلة من خطابات المعجبين. وأخيرًا عندها بيت الأحلام الكامل المزود بحمام السباحة، وأربعة من الخدم، وصندوق من الحبوب المنومة.

وبعد مضى أربعين ساعة منذ لحظة استدعائى من المنزل كان فى مقدورها أن تجيب على تساؤلى:

- لماذا فعلت ذلك؟

وأجابت: لمجرد الشعور بأن أهرب من كل هذا. فالانتظار بالساعات استعدادًا للّقطات السينمائية، والوسطاء الذين يبلغونى أن على أن أكسب المزيد، وطلبات التبرع، ومشاكل ضريبة الدخل، وحديث الوسطاء عن استثمارات لا أدرى عنها شيئًا، وحيل الإعلام. وأخيرًا هذه الأمسية التى كانت كالكابوس حين ابتلعت الحبوب. فقد ذهبت فى حفلة الافتتاح لأحد أفلامى الأخيرة. وتقاطر الناس أفواجًا علىّ حتى سحقونى. وقطع أحدهم معطفى وهو من فرو المنك ليأخذ منه تذكارًا. ورجعت للبيت وأنا فى غاية النفور والتقزز. وقلت لنفسى إذا كان هذا هو النجاح فأنا فى غنى عنه. وكل ما أردته هو أن أهرب من كل هذا، وضاقت الدنيا فى وجهى.

وكانت جون داى على حق. لأن الشخص الذى يريد أن يهرب من الكل، لن يجد له ملاذًا. فالكل مهما كان نوعه لابد أن يظل ويبقى.

وناقشت نفسى لبرهة. هل أخبرها بأن عندها كل ما يصبو إليه إنسان فى الحياة — المال والشهرة والسيارات والمنزل الجميل؟ ولكنى طرحت هذا الرأى جانبًا. فليس لأى امرئ

ما يعيش من أجله إن لم يكن له شيء يستحق الفناء في سبيله، وما كان لدى جون كان بالتأكيد لا يستحق أن يموت المرء في سبيله. فقلت لها: اسمحي لي أن أخبرك لماذا أنت تعيسة غير راضية. فأنت تقولين إنك تودين الهرب من كل شيء. وهذا عكس الحقيقة. إنك تشعرين بالتعاسة وعدم الرضا لأنك لم تتعاملي أبدًا معها بطريق مباشر. خذي إجازة وتعلمي كيف تتعاملين مع الأشياء فستدهشين، فكلما أكثرت من التعامل مع الكل بطريق مباشر قل حنينك للهرب منها.

فلقد كانت الآنسة لا تتعامل إلا مع شيء واحد هو التمثيل. فقد كان جسمها ووجهها جميلين. وكان صوتها في الحديث رائعًا وكانت تعلم كيف تتبع الإرشاد المسرحي.

كما كان لديها شيء آخر أيضًا. شيء من الصعب تحديده أو وصفه وهو ذلك الشعور بالمسرح والإدراك له وهو شيء بدونه يستحيل على الإنسان أن يصبح ممثلا.. سمه التوقيت، أو الاستغراق أو القدرة على إسقاط شخصية تخطف الأبصار وهي تخطر بين الأضواء ولكنه يتحدى التحليل وكانت الآنسة داي تتمتع به. فلقد كانت قطعة من المسرح كما كان رأسها قطعة من جسدها.

وحين تقف على المسرح كانت تجعل خلفية المسرح تبدو أجمل من حقيقتها. وكان وجودها يكمل ويتكامل مع المناظر. وإذا أعطيت قطعة جيدة لتقرأها نفثت فيها من مادة الحياة ولونها نفثة. وقد قالت:

لقد دخلت التمثيل وأنا في الخامسة (ثم استطردت بطريقة خالية من الذكاء في سرد مأساتها) وهذا كل ما أعرفه. فليس في مقدوري التعامل مع الناس. بل ليس في مقدوري التعامل والتوافق مع أي شيء. فأنا دائما أشعر أني أختلف عن بقية الناس وأنني بعيدة عن كل شيء إلا التمثيل طبعًا.

وفي هذا أيضًا كانت الآنسة داي على صواب. وسواء صدقت أم لم تصدق فلم يكن في مقدورها حتى أن تقلي البيض. ولم تكن تستطيع القيام بأشغال الإبرة. بل لم تكن تستطيع الاحتفاظ بدفتر الشيكات سليما، فهي في الحقيقة والواقع لم تكتب شيكا أبدًا فقد كان لها من يكتب نيابة عنها وكان المال بالنسبة لها شيئًا غير واقعي مثل الأطباق الطائرة. ولو أن المال كان بالنسبة لها شيئًا تقلق من أجله لأن غيرها من الناس كانوا يهتمون به إلى درجة كبيرة ولم تكن تدرى لماذا. وكل شيء ليس على المسرح فهو رعب لها.

وفي إحدى المرات أوقعت نفسها في ورطة لأنها سمحت لواجهة إحدى المنظمات الشيوعية أن تستعمل اسمها على خطابات المنظمة. ونظرا لأنها كانت تجهل السياسة جهلا تامًا فقد

صدقت بعضهم حين أخبرها أن وجود اسمها على رأس الخطابات طريقة إعلامية طيبة. وحين قامت العاصفة كانت تشعر بشعور طفل في الثالثة من عمره حين يضرب على استعمال ألفاظ لا يفهم معناها. وقد شرحت الموضوع لمخرجها وهو هائج ثائر بقولها:

○ لقد أردت مساعدتك. ألم تقل لى إن الإعلام مهم جدًا؟

إذا كنت قد أعطيت عن جون داى صورة غبية فقد ظلمتها وظلمت القارئ. فمثلها مثل غيرها من الناجحين فهى كانت ذكية موهوبة ولكن غير متعلمة. ولقد عالجت كثيرًا من الذين وصلوا إلى أعلى مراتب النجاح فى جميع دروب الحياة، مثل رؤساء مجالس شركات الإنشاء الكبيرة والأطباء والمحامين والكتاب والموسيقيين ورجال الأعمال من الرجال والسيدات. فقد كانوا فى أعلى مراتب الذكاء فى معظم المواقف ولكن فى ناحية ما من النواحى المهمة فى حياتهم لم يكونوا متعلمين. ففى ناحية أو أكثر كانوا مقطوعى الاتصال بالأشياء. وفى جزء ما من الدنيا التى عليهم أن يعيشوا فيها كانوا لا يشعرون بالاطمئنان والراحة.

وكونك لا تشعر بالاطمئنان والراحة فى هذه الدنيا شىء مريع. إنك تشعر بالغربة.. تشعر بالبعد عن كل شىء. إنه شىء يجعلك تريد الفرار منها وتحاول أن تجد لك مخرجًا.

وليس هناك مخرج ولكن هناك مدخلا. فلكى تنجو من الشعور بأنك شخص غير متوائم لا ينتمى، عليك بالمشاركة والاتصال. وللتخلص من الشعور بأن الإنسان عبء لا لزوم له، على المرء أن يجعل نفسه مرغوبًا مطلوبًا. وهو يفعل هذا بعمل ما يلزم. فلكى تجعل لك شأنًا اجعل لما حولك من الأشياء شأنًا.

ولقد قلت لجون داى:

– إن لك أربعة من الخدم. فادفعى بهم إلى العمل واجعليهم يعلمونك الأشياء التى يعرفون طريقة أدائها. فإن من أبسط الأمور لاكتساب احترامهم واحترامك أيضًا لنفسك أن تحاولى أن تتعلمى منهم ما يعلمون.

ولحسن الحظ كان إيمانها بى إلى درجة جعلتها تسمع لما أقول وتحاول. وبذلك تعلمت أشغال الإبرة كما تعلمت الطهى والخياطة وأن تخرج بنفسها لشراء ما تحتاج إليه من أنواع البقالة وغيرها من المواد. وقد أتاحت لها أشغال الإبرة الفرصة لأن تعمل شيئًا بيديها. وهى تنتظر الساعات الطوال التى لا آخر لها بين المناظر. ولكى أهيئ لها فرصة إعادة التعلم فى الواقع وأجعل له قيمة نظمت لها زيارات لجرحى الحرب فى المستشفيات لكى تتعرف على بعضهم وتهدى إلى هؤلاء الأصدقاء الجدد «السويترات» التى عملتها بأيديها.

أمر بسيط، سهل. نعم، ولكنه بالنسبة لها فتح إلى دنيا لم تكن تتصورها، فقد اكتشفت أن قيامها بعمل شىء بيديها لشخص تعرفه أمر يختلف عن إمضائها صك تبرع لهيئة لم تسمع بها أبدًا. أما مسألة الهرب والفرار، فلم يمض طويل وقت حتى أصبحت تشعر أنها لا تقترب من دنياها بما فيه الكفاية التى تستنسبها.

وكان هذا بالطبع بداية لعملية إعادة تعليمها وتحركها نحو الواقع. فقبل أن يكون فى مقدورها أن تشعر حقًا بالاطمئنان إلى عالمها كان عليها أن تواقع الحياة وتتصل بها فى أكثر من موقع.

وحين سردت هذه القصة على زملائى سألونى كيف أن جون كانت تصنع الأشياء على المسرح بطريقة تبعث على الاقتناع ولا تستطيع أن تؤديها فى حياتها الخاصة. وقد سألتها فى ذلك فأجابت:

○ أوه. إنه شىء يختلف تمامًا. أتذكر دور شيرلى بوث وهى تطهى البيض بلحم الخنزير فى رواية «عودى ياشيبا الصغيرة»؟ إنها تأخذ فى هذه العملية على المسرح أقل من دقيقة ونصف. ولكنى بعد أن تعلمت الطهى كما تعلم وجدت أننى لكى أطهو البيض مع لحم الخنزير أحتاج إلى حوالى عشر دقائق مع الانتباه التام. ولكن الآنسة بوث خلقت الوهم بأنها تطهى بل زادت عليه الفكرة فى أنها تفعل ذلك بكفاية.

وصمتت برهة ثم استطردت.

○ إن المسرح شىء يختلف عن واقع الحياة. ولقد أرسلتنى إلى معهد لتعليم فنون الطهى. لقد أرتنا المدرسة كيف نخلط عجينة الكعكة. وكان أغلب السيدات بالفصل متضجرات من طول الزمن الذى أخذته المدرسة. فقد كن يكرهن الانتظار. فلو كنت أنا التى أقوم بذلك فوق المسرح فربما بعثت هؤلاء النسوة على الضحك أو البكاء أو أى شىء. ولكنهن لم يكن ليتضجرن أبدًا، ومع ذلك فإنهن لم يكن ليتعلمن كيف يخلطن الكعكة بمجرد مراقبتى. وبعد ذلك استطردت تقول:

○ عشت طوال حياتى أراقب الناس وهم يصنعون الأشياء. ولكن لم يحدث أبدًا أن يكون ذلك بغرض أن أقوم بعمل هذه الأشياء بنفسى بل كان ذلك دائما بغرض أن أخلق على المسرح الوهم بأننى أصنع شيئًا. لقد كانت حياتى متطرفة فى هذا الاتجاه أكثر من اللازم. ولكن منذ أن بدأت أستغل يدى وأستعملها بحماس. أحس وكأننى قد شببت عن الطوق وازددت نموًا واستطالة. ولكن الذى يلسع فؤادى فى الواقع هو أن أحدًا لم يحفل بتعليمى كيف أستعمل يدى إلا فى التمثيل. فما السبب؟

صحيح ما السبب؟ فهذا هو السؤال الذى يدور فى خلد الكثير من التعساء، لماذا لم يُعلّموا كيف يتعاملون مع الأشياء مباشرة؟

من ناحية جون داى فإن الرد فى منتهى الوضوح. فقد استغل والداها مواهبها لمنفعتهما الخاصة. وبعض الناس يدربون الكلاب ليؤجروها للسينما، وهكذا عاملها أبواها كالكلب المدرب. وانصياعًا للقانون فقد كان عليهما أن يتيحا لها أقل قدر من الدراسة بالمدرسة. ولقد فعلا ذلك كارهين بوضعها فى مدرسة خاصة عاملين على إشعارها أن كل يوم تقضيه فى المدرسة إنما هو يوم ضائع.

وكانا حريصين على حرمانها من أى ممارسة حقيقية للتعليم. فقد كانا يريدانها دائمًا تعتمد عليهما تمامًا حتى يتمكنا من إحكام السيطرة عليها فهى مورد رزقهما، وقد كانا يمانعان فى تعلمها قيادة السيارات، وبدلا من ذلك استأجرا لها قائدة تقوم بعمل مزدوج إذ كان عليها أن تقوم بدور الجاسوس الخاص تراقب كل ما تراه جون داى أو تقوله أو تفعله ثم تقدم إليهما التقارير المستفيضة. فلا عجب أن كبرت وهى على هذا الحال من العجز وقلة الحيلة.

ولكن فى النهاية استطاعت جون أن تملك قياد نفسها. فوراء الكواليس كانت تعامل كأنها ملكة يرجع إليها فى تنفيذ أى رغبة من رغباتها. فأتاح لها هذا بعض الأفكار التى أخذتها معها إلى المنزل. وفى يوم من الأيام طردت والديها وأخرجتهما من المنزل إلى حيث يعيشان من معاش كفلته لهما.

وإلى هنا والأمر طيب. ولكن كل ما فعلته لم يعطها الشعور بالأمن والاطمئنان، فبدلا من والديها أصبح لها وسطاء يتكالبون على خدمتها. فهل هى تريد منزلا خاصًا لها؟ «إذا فلا تتعبى رأسك الجميل. فسأجد لك ما تريدين بالضبط». وكل ما كان عليها أن تفعله هو أن تقوم بإمضاء أوراق لا تفهم فيها شيئًا. ومن الواضح أن هذا لم يكن ليزيد من ثقتها بنفسها شيئًا أو إلى قدرتها على صنع الأشياء فتيلا. وبدون الثقة بنفسها وبدنياها زاد توترها وأصبحت عصبية. وهذا ما حدا بها إلى أن تبحث عن العلاج النفسى.

لا يكفى أن نقول: إن هذه حالة استثنائية خاصة. صحيح أنها دفعت إلى التمثيل من والدين طموحين كانا حريصين على استغلال مواهبها. ولكن الصحيح أيضًا أنها تعلمت القراءة والكتابة والحساب وهى الأشياء التى يغالى فى قيمتها أولئك الذين لا يدرون شيئًا عن مشاكل الطفولة ومطالبها. وقد حرمت من إشباع مطلب إنسانى أساسى ألا وهو الحاجة إلى استعمالها ليديها. وهذا هو المطلب والحاجة التى كثيرًا - وكثيرًا جدًا - ما تخيب فى مجتمعنا الصناعى العصرى.

إن ما يطلقون عليه الآن التربية التقدمية ما هى إلا محاولة لإتاحة الفرصة للطفل أن يمارس الأشياء التى كانت فى الماضى جزءًا من الحياة اليومية العادية ولكنها لم تعد كذلك فى حياة المدن الآن.

إن الحاجة إلى معالجة الأشياء باليدين هى مطلب فسيولوجى ملح تمامًا كالحاجة إلى الطعام. ونحن لنا مطالب وحاجات متنوعة مختلفة ولابد من إرضائها بشكل أو بآخر إن أردنا أن نحتفظ باتزاننا. ومن بين هذه المطالب والاحتياجات الحاجة إلى الاتصال الوثيق بالبيئة التى نعيش فيها عن طريق المعالجة الناجحة لها بأيدينا. وقد تعتبر مدرسة فرويد هذه الحاجة أو المطلب غريزية. وقد لا تظهر عند الميلاد ولكنها تنمو بنمو عضلاتنا ونضج جهازنا العصبى.

فحين كنت فى الأسبوع الثامن من عمرك كنت قادرًا على الوصول إلى «الشخشيخة» والقبض عليها. والقرد أسبق فى هذا من الإنسان. ولكن هذا أحد الفروق بين الإنسان والقرد. فإن القرد حين يبلغ الشهر السادس من عمره يكون قد اكتسب الخبرة القصوى فى شئون إطعام نفسه وأصبح من القدرة على ذلك كأبيه أو أمه. أما الطفل البشرى فى الشهر السادس فهو يتخبط مع مشبك ملابسه يضعه فى فمه ثم يسقط منه فيحاول أن يصل إليه مضيعًا الوقت الطويل فى تلبية الرغبة الملحة فى الإمساك بالأشياء واستكشاف عالمه. ولكنه ما زال قاصرًا عن القدر الكافى من المهارة اليدوية ليستطيع أن يطعم نفسه. وحين يصل إلى المرحلة التى يستطيع أن يضع الطعام فى فمه دون معونة من أحد يكون الفرد قد وصل إلى المرحلة التى يبحث فيها عن رفيق له.

والشىء الذى لا يحدث للقرد هو أن الإنسان لا يكف عن التعلم طيلة حياته لأن الدافع فيه إلى الاستكشاف واستجلاء الأمور والأشياء لا يقف عند حد. فالقرد يتعلم كل ما يلزمه فى حياته فى بضعة أشهر قليلة. أما قدرة الإنسان على تعلم صنع الأشياء بيديه فلا حد لها. وهو يستطيع أن يقف عن التعلم لا لعدم وجود شىء جديد يتعلمه ولكن عندما يشعر أنه قد أرضى حاجته إلى المعرفة بما ترتاح إليه نفسه. وبعض الناس الذين لا يشيخون، لا يصلون إلى هذه المرحلة أبدًا.

وعند ما نخفق فى قضاء حاجة أو مطلب من المطالب الأساسية فإننا نشعر بالتوتر العصبى. وفى بعض الأحيان نكون على علم بما يسبب لنا القلق والضجر. ولكن فى أغلب الأحيان لا ندرى بما يعْتَورُ نفوسنا. وكل ما ندريه هو الشعور بالسأم والتوتر وأننا فقدنا الصلة بالأشياء. وأشد ما ينطبق هذا على الحالة التى نخفق فيها فى تلبية الحاجة إلى صنع الأشياء بأيدينا. فحين نجد أنفسنا بدون عمل إلا الجلوس وفرك الأصابع ينتابنا السأم بجميع أنواعه ونحس بأننا لسنا على ما يرام غير راضين عن أنفسنا نثور لأقل بادرة من غيرنا. وأن نجد لأنفسنا ما نستطيع أن نعمله

بأيدينا نكون كمن يفتح النافذة فى غرفة محكمة الإغلاق مزهقة للأنفاس عالية الحرارة. إن هذا العمل يجدد الهواء بها وكما يدخل النسيم العليل المنعش إلى الحجرة كذلك يحدث للذهن فيصفو وللقلب فترتفع معنوياته.

ولقد استطاعت الآلات أن تزيح من حياتنا عبودية الكدح والعناء ولكنها فى حالة جون داى تركت حياتها خاوية فارغة. إن آلاتنا العجيبة قد أثقلت علينا بالوقت الفارغ. والإنسان يستطيع أن يواجه الكد والعناء، أما الفراغ والسأم فهما يبعثان على العلة والمرض. ولقد أثبت البحث العلمى أن السأم يمكن أن يحدث انهيارًا عصبيًّا قاسيًا مع ما يصاحبه من اختلال خطير فى أنسجة الجسم ووظائفها.

وحينما كنت صغيرًا كنت أستمع إلى جدتى وهى تقول: «اليد الفارغة يلعب بها الشيطان». وحينما أفكر فيها وهى تطهو الطعام على موقد خشبى وتغسل الثياب بيديها يأخذنى العجب والدهشة حين أتصور ما يمكن أن تقوله حين ترى الموقد الكهربائى الذى يعمل بالضبط الآلى الذى يرسل الحرارة ويقطعها ويُطهى لك ربما وأنت نائم. وما الذى ستقوله حين ترى الغسالة الكهربائية التى لا تكتفى بغسيل الثياب، بل تقوم بعصر الماء منها وتجفيفها؟ أستطيع أن أتصورها وهى تقلب النظر فى المنزل الحديث من المطبخ الكهربائى إلى غرفة الجلوس مكيفة الهواء بالكهرباء ثم تلاحظ فى أسى كيف حلَّ جهاز التليفزيون محل بيانها القديم وأكاد أسمع تقريظها اللاذع وهى تقول: «لكى تدبر كل هذا يجب عليك أن تكون بارعًا فى لس الأزرار».

نعم فقد خففتِ الآلات كثيرًا من العناء والكد من حياتنا، ولكنها لم تضف إليها جديدًا اللهم إلا الأقساط الشهرية. وأنا لا أهاجم التحرر من الكد والعناء، ولكن حين أرى وأبصر أناسًا تعساء يحسون بالوحدة والوحشة وهم يجلسون الساعات الطوال على طاولات الكوكتيل ضعيفة الإضاءة أشعر وقتها أن الفراغ لعنة بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون الاستفادة منه.

ووقت الفراغ فرصة للإبداع ولكن كما يقول المثل «إن الزنابق التى تتعطن تصبح رائحتها أنتن من الأعشاب الضارة» كذلك فإن الفراغ غير المنظم أو المخطط إنما هو مُخَصِّب كريه لأشد نوازع الإنسان هدمًا وكراهية.

والآلة مظهر من مظاهر المدنية والحضارة التى تعزلنا عن أشد مطالبنا واحتياجاتنا الفسيولوجية والنفسية رسوخًا فى أنفسنا.

وأنا أتكلم فى هذا الفصل عن الفشل فى تحقيق مطلب واحد من مطالبنا الفسيولوجية وهو الحاجة إلى استعمال الأيدى والعمل بها. ولقد اختطفت الحضارة الصناعات اليدوية من أيدينا وأوكلتها إلى الآلة والمصنع. وأدى هذا إلى حصولنا على الأنسجة القطنية بأرخص الأسعار كما

أدى إلى أن نعانى من الأمراض الجلدية الناشئة عن أصل عصبى. كما حصلنا على الأغذية المعلبة وحصلنا معها على القرح المعوية، وحصلنا على المواقد الآلية التى يضبطها منظم كهربائى وحصلنا معها على أمراض البرد العصبية. لقد جعلت الآلة حياتنا أشد رخاوة ولينًا ويسرًا وأعطتنا المساند والوسائد من المطاط المنفوخ لنهدهد عليها ثورتنا على الحقارة والعبث وعدم النفع.

وحين يفقد الناس التعساء صلتهم بالواقع لدرجة تستدعى الرعاية بالصحة فإن أول ما يعنى به الطبيب هو أن يمدهم بطريقة للعلاج بالعمل، وبهذه الطريقة من العلاج تصبح مسألة استعادتهم لصحتهم موضوعة فى أيديهم. ومنذ ثمانية عشر قرنًا مضت لاحظ جالينوس العظيم أن العمل باليد لصنع الأشياء يزيل التوتر العصبى ويخفف الوطء عن الذهن المكدود. وكل إنسان يعلم من تجاربه وخبرته الشخصية أن العواطف يمكن تسربها وتصريفها من الحقد أو الخوف إلى الخلق والإبداع والابتكار ببساطة بالقيام بعمل شىء حتى ولو كان من البساطة لدرجة تصفيف الأدراج فى خزانة الملابس.

وفى يوم من الأيام حضر إلى عيادتى بليك دالتون ومعه والده وهو فى حالة ذهول. وما إن دخل حتى قال:

○ لابد أن هذا الولد مجنون. ففى أيامى لم يكن الأولاد يفعلون هكذا.

وكان بليك فى سن الخامسة عشرة وحجم جسمه أكبر من سنه، وقد بدت على وجهه الفظاظة وفى عينيه نظرة شك. وكان ينظر إلىّ وكأننى ناظر مدرسة كبير يريد أن يحاكمه ويوقع العقوبة به.

وكان قد قام بالاشتراك مع زميلين من زملاء المدرسة باقتحام مبنى المدرسة ليلاً، وحطموا الأثاث ومزقوا الأوراق ونثروها فى كل مكان. وقد علقت على ذلك باسمًا بقولى:

○ لابد أن مدرسيك قد أغاظوك إلى درجة الجنون!

وما إن ذهبت الوحشة من نفس بليك حتى بدا فى التعبير عن رأيه فى المدرسة ومدرسيها بلغة فيها بهاء وإن لم يكن فيها تحفظ فقال:

○ إن كل ما يريدون عمله هو أن يهزءوا بك. فإذا كانوا حقًا على درجة كبيرة من العلم فما الذى يُلجئهم إلى التدريس.

فذكرنى هذا بالحقيقة التى وجدتها حين كان لى نصيب مع هؤلاء المتحذلقين مدعى العلم. ولكنى لم أر لزومًا لكشف أفكارى لهذا الصبى الغاضب. وبدلا من ذلك سألته:

○ أى نوع من الرجال تحب؟

فأخبرنى أن الناس الذين يعجب بهم هم أولئك الذين فى مكنتهم أن يصنعوا بأيديهم الأشياء. ومن الذين يحبهم بصفة خاصة الذين يمارسون ميكانيكا السيارات.

فى الأسبوع التالى حول بليك من مدرسته النظرية إلى مدرسة صناعية. واشترى له والده سيارة قديمة ليستطيع أن يفك محركها ويعيد تركيبه بالمدرسة. وزيادة على ذلك فقد أعطى تصريحاً للعمل فى وقت فراغه بإحدى محطات البنزين.

وقد سألت بليك بعد ذلك: هل مدرسه الحالى من تلك «الطغمة من الحمقى» الذين لا هم لهم إلا الاستهزاء به؟ فأجاب ضاحكاً:

○ كلا إنه عظيم. إنه يفهم مادته حق الفهم. وسيبدأ فى تعليمنا كيفية إصلاح النقل الآلى. وهو عمل يدر النقود.

وبعد ستة أشهر قال عنه والده:

○ لقد جعل منه هذا العمل رجلاً. أتدرى أنه اشترى آلات بما قيمته ثلثمائة دولار. وكلها من كسب يده وادخاره؟

فآلية الحياة التى باعدت بين بليك وسعادته لم تعد عقبة أمامه حين أصبح ميكانيكيًا. وفى المعركة بين الإنسان والآلة يكون النصر من نصيب من يكسب السيطرة.

وهناك تلك الفئة التى تعتبر العمل اليدوى مهينًا لكرامتها. وهذه الكبرياء الزائفة هى بقية من بقايا العصور البائدة حينما كانت أكاليل الغار تضفى على الجنود المحاربين، أما العمل اليدوى فكان لا يليق إلا بالطبقة السفلى. واليوم ندرك أن للعمل اليدوى مزايا ثقافية واضحة. إن تاريخ البشرية يمكن قراءته من تاريخ النسيج. وإن فى هذه البلاد مليون شخص يعملون بالغزل والنسج اليدوى، وتعلو قيمة ما يصنعون على أن توضع فى متجر عادى. والقليل جدًا من يربح الكثير من هذه العملية، ولكن مكسبهم الحقيقى يتحقق فى متعة الإبداع والخلق التى هى أغلى من النقود. فالمهارة فى استعمال المغزل والمنسج والخيط والإثارة التى يحدثها مزج الألوان والنسج والاستمتاع بالمنتجات حين يتم صنعها. كلها جوائز تبعث على السعادة. ففى كل إنسان النزعة إلى إبداع شىء وأن يرى نفسه وقد دل عليها إبداعه وإنتاجه.

ويجد ملايين الناس سعادتهم فى تلك الهوايات التى تذهب التوتر مثل أشغال النجارة وعمل التماثيل الخزفية والحياكة. وفى هذه الهوايات يتوفر للمرء ما يعرضه نتيجة للوقت الذى قضاه. ومهما كان هذا الشىء المعروض فإنه يدعم بناء الشخصية ويزيد من احترام النفس. فإذا سمعت هذا التقريظ:

○ ماذا؟ هل أنت الذى صممت هذا الشىء وصنعته بنفسك؟ إنه يبدو كعمل شخص محترف. إنه رائع وجميل وكامل الأجزاء والتفاصيل.

فماذا يكون شعورك إذا قال لك ذلك أحد الناس عن زى حاكته يداك؟ أو خزانة خشبية صممتها وصنعتها بنفسك؟

والتعساء من الناس يرددون دائمًا أنهم يريدون أن يكونوا كبقية الناس حسنًا. فماذا يصنع بقية الناس؟

فمجلة «تايم» قد أوردت فى تقرير لها أنه فى عام ١٩٥٣ كان هناك أحد عشر مليونًا هوايتهم النجارة قد استعملوا خمسمائة مليون قدم مسطح من خشب الأبلاكاج. فحاول أن تتصور تلك الجدران الجميلة والموائد والخزانات التى أبدعها أولئك الهواة السعداء. وقد كانوا يستعملون خمسة وعشرين مليون أداة تدار بالكهرباء استهلكت من الكهرباء ما يكفى لإنارة مدينة مثل جاكسونفيل بولاية فلوريدا لمدة عام. وبين كل جالون من الطلاء المصنوع فى الولايات المتحدة الأمريكية يذهب ثلاثة أرباعه إلى أيدى الهواة الذين يطلون به منازلهم (المقدار أربعمائة مليون جالون). واستهلكت خمسة وثلاثون مليون سيدة واسعة الحيلة ما يبلغ سبعمائة وخمسين مليون ياردة من القماش فى حياكة ملابسهن الخاصة. وكانت الآنسة جون داى واحدة منهن.

وكثير من أصدقائى يصنعون بأنفسهم خبزهم الخاص، وهو أمر سيىء بالنسبة لأنى أفرط فى أكله. ولكنه أحلى مذاقًا بكثير من رغيف السوق.

وزيادة على المليون من هواة النسيج اليدوى فى الولايات المتحدة فهناك ما يبعث على المزيد من الدهشة وهو وجود ثلاثة ملايين من الرسامين الهواة. أمّا كم فنانًا عظيمًا سيخرج من صفوف هذه الملايين فأمر لا يعنينى لأنى أحب الجميع.

وليس أمامى متسع من الصفحات لكنى أضيف أن هناك هوايات أخرى مثل صناعة الخزف والنحت على الخشب والنحت وتلك الهوايات العملية مثل تجميع الآلات الصوتية الدقيقة.

والآن تعال ننظر إلى كل هذا النشاط من ناحية تقييمه المادى.

قامت السيدة «ت. ى. هوجارثى» من أسبورى بارك بولاية نيوجرسى بصنع بعض الهدايا لعيد الميلاد من واقيات الثياب ليقدمها أطفال العائلة لمدرسيهم. وقد صنعتها من نسيج سميك ورسمت عليها حلية من رسوم الأطفال. فأثار هذا العمل إعجاب بنتيها الصغيرتين وكذلك مدرسيهما الذين تسلموا الهدايا. وكان كل من يرى هذه الهدايا يسأل عن مكان صنعها.

والآن فقد أقامت السيدة هوجارثى صناعة لهذه الهدايا. ودرّت عليها هوايتها المكاسب.

وكان ميخائيل هنزاكوس من أهالى مدينة بيربانك فى كاليفورنيا يستمتع بصناعة الأطباق الخزفية فصنع لها فرنًا فى المكان الذى يودع فيه سيارته بالمنزل. وكان يعمل بها أثناء عطلته الأسبوعية. وقد استحالت هذه الهواية إلى صناعة ناجحة يعمل عنده فيها الكثيرون وتستأثر بكل وقته ليعمل فيما يحب أن يعمله وهو تصميم الخزف على الخشب والأحجار.

وهكذا فاليوم ينفق المرء على هوايته وغدًا تنفق هوايته عليه.

ويمكن للمرء أن يكتب كتابًا يتحدث فيه عن السعادة التى يخلقها الاشتغال بالفنون أو الصناعات ولكن لماذا الشرح لما هو واضح؟ فالحقائق أكثر أهمية من الشرح، ويكفى أن أشير إلى بعض الأشياء التى يحققها لك العمل اليدوى.

وقد سبق أن ذكرت أنه من الناحية التشريحية ومن ناحية وظائف الأعضاء فقد خلقت أيدينا لكى نستعملها. ولعلك رأيت الذين يلعبون بمجموعة مفاتيحهم والذين يقضمون أظفارهم والذين ينقرون بأصابعهم على المائدة وكلهم يحاول أن يتخلص من التوتر العصبى باستعمال أيديهم. فلماذا لا يصرفون هذه الطاقة العصبية فى مجرى يعود عليهم بما يباهون به؟ إنهم مثل الذين يمارسون أحلام اليقظة فيضيعون طاقتهم فى أوهام يخلقونها. إن الذى يعمل بيده يتعامل مع الواقع ومع أشياء حقيقية وبهذا يستطيع السيطرة والتحكم فى الواقع.

والواقع يختلف عن الخيال والوهم فى أنه جامد عنيد لا ينثنى. ولكن يمكنك السيطرة عليه، فلابد لك من معالجته. فالخيط له طريقته التى يعمل بها ولا تستطيع أن تستعمل معه الإكراه، بل عليك أن تفهمه وتعالجه بطريقته حتى يؤدى لك ما تريد، وخيوط الصوف تختلف فى التصرف عن خيوط الكتان. كما أن للحرير فطرته وطبيعته التى جبل عليها. وحتى الخشب له طريقته الخاصة فى التصرف ولكى تتمشى مع قطعة الخشب عليك أن تتبع طريقة تعرفها. وينطبق هذا على كل المواد سواء كانت طلاء أم قوالب بناء أم أحجارًا أم حديدًا أم طينًا.

ولكى تنجح فى معالجتها يتحتم عليك أن تتناولها بكثير من دقة الحس. وعندما تصل فى النهاية إلى أن تعرفها حق المعرفة وحتى تصبح أطوع لك من بنانك فإنك تكون قد حققت شيئًا مجزيًا حقًا إذ أصبحت على اتصال وثيق بالحقيقة والواقع.

وقد تكلمت عن المتعة التى تحسها حينما تلقى نظرة على ما صنعت فيسرك الإتقان فيه. والمتعة التى تحسها من رضاء الناس عنك قريبة الصلة أو الشبه بهذه المتعة. أو بعبارة أخرى فإن توثيق الصلة بينك وبين الحقيقة المجسمة والواقع يعينك على أن تشارك بنصيب فى تجارب الآخرين الذين صنعوا مثل ما صنعت. ومهارتك التى اكتسبتها هى بطاقتك العضوية فى

رابطة من الإخوة السعداء المبدعين الخلاقين. وإذا تعلمت معاملة الأشياء تعلمت معاملة الناس، لأن تعاملك مع الأشياء يقوى من قبضتك على الحقيقة والواقع بطريقة آلية وفى ميدان آخر هو واقع الحياة الاجتماعية. وإليك:

القاعدة رقم ١

تعلم الأشغال اليدوية ومارسها واستمتع بها.

ولقد كنت أعمل فى حديقة فى صبيحة أحد أيام الآحاد وجاء زائر فعلق على ما أفعل بقوله: «إن هذا العمل يمكن أن يؤدى إليك بطريقة رخيصة لا تزيد على دولار عن الساعة أليس وقتك أثمن من ذلك؟».

وأظن أنه كان على حق. فوقتى أغلى من دولار عن الساعة. بل إنه أغلى من عشرة آلاف دولار فى الساعة. فكل ساعة من وقتى تساوى ستين ثانية من التجربة الخلاقة، فإذا قنعت بأقل من هذا فإنما أخدع نفسى. والتجربة الخلاقة لا يمكن أن تقوَّم بأى عدد من الدولارات. وحين أعمل فى الحديقة فأنا أستمتع. فكيف أدفع للبستانى دولارًا عن الساعة ليكفل لى المتعة؟ كما أن المنظر الجميل الذى أحصل عليه بعد العمل متعة أخرى تضاف إلى غيرها من المتع.

وبما أنى تكلمت عن زراعة الحدائق فيسرنى أن أشير إلى أن النباتات تعيش فى مستوى من الحقيقة والواقع يختلف جدًّا عن واقع وحقيقة الجماد. فهذه تخدم تحت سلطان مختلف وتخضع لقوانين مختلفة. وحينما تتعلم أن تستمتع بالتجربة الخلاّقة مع الحشائش والكروم والأعشاب والأزهار والأشجار فإنك تدخل عالمًا جديدًا رائعًا. إنه عالم يجود بأكثر مما يُعطى له. فأنت حين تشتغل بالجماد فإن النتائج لن تكون أحسن من المواد التى صنعت منها ومن مهارتك التى أضْفَيْتَها عليها، أما الأشياء الحية فليست مقيدة بحدود. فكل نبات أو زهرة تسهم بنصيبها من نوازعها الحية وروائعها وطريقتها فى الأداء.

وفى أطوار البشرية الأولى استطاع الجنس البشرى أن يبقى على حياته بالعيش على ما يجده. وبعد ذلك جاءت المرحلة التى تعلم كيف يصنع الأشياء مثل الفئوس والحراب والسهام وشباك الصيد. وبذلك ارتفع إلى مستوى أرفع من المدنية والتحضر. وبعد ذلك تعلم كيف يزرع غذاءه. ووهبته الزراعة سطوة أكبر وسيطرة أعظم على قدره ومصيره. ومن تعلم السيطرة على النبات تعلم السيطرة على نفسه. وما ضبط النفس بالنسبة للفرد إلا القدرة على التحكم فى بيئته.

وإن ما احتاجت البشرية لعشرات الألوف من السنين لكى تتعلمه تستطيع أنت أن تتعلمه فى بضعة أشهر قصار. وما زالت الزراعة هى القاعدة العريضة والأساس الرحب الذى تستقر

عليه كل الإنجازات البشرية، ولكنك لست فى حاجة لأن تكون مزارعًا لتسهم فى معجزة الحياة هذه وهى البذرة التى تنمو فتصير نباتًا. وكل فرد من قاطنى المدن يستطيع أن يكون له حديقة فى الخلاء أو فى المنزل، والأمر لا يستدعى أن تكون حديقة كبيرة أو أن تكون كثيرة التكاليف. وإذا لم تكن قد جربت من قبل فسيدهشك ويسرك أن ترى ما يحدث إذا وضعت نبات البطاطا فى إناء به ماء فى نافذة غرفتك.

القاعدة رقم ٢

ازرع نباتًا أو أنشئ حديقة.

. فعندما بدا الإنسان يعنى بالنباتات لكى تعنى النباتات به — وكان ذلك منذ حوالى اثنى عشر ألفًا من السنين — فإنه بدأ فى نفس الوقت بالعناية بالحيوانات.

وإنى لواثق أن توليف الحيوانات لم يبدأ كمشروع وإنما بدأ للمتعة. كما أنى واثق أيضًا أن طفلا صغيرًا كان أول من قادنا إلى أن نؤوى ونحمى أولئك الأصدقاء والمعاونين، إنها الحيوانات الأقل منا شأنًا. وحتى فى أيامنا هذه فإن الطفل هو الذى يأتى إلى المنزل ومعه قطة ضالة أو كلب لا مأوى له لكى يأخذ نصيبه من مدفأة العائلة.

إن الطفل الكائن فيك هو الذى يطلب حيوانًا أليفًا. فأصغِ لهذه الدعوة سمعًا وامنحها رعايتك واهتمامك واذكر قول القائل: «لن تدخلوا ملكوت السموات حتى تصيروا كصغار الأطفال».

إن هناك شيئًا من الحقيقة وواقع الأرض التى ندب عليها فى ذلك العمل الذى تعمله بيديك سواء كان زراعة الحدائق أم العناية بالحيوان. فهذه الأشياء جوهرية وصحية. وهى تمنح الإنسان راحة البال وقوة الحنان والرضا. إنها تجعلك قويًّا.

وهناك قصة من الأساطير اليونانية تتحدث عن معركة بين هرقل والعملاق أنتيوس. فقد كان هرقل مصارعًا قويًا فى مقدوره أن يرفع العملاق عن الأرض وأن يتعبه، ولكن ما كادت المصارعة تقرب من نهايتها بانتصار هرقل حتى سمح لأنتيوس بأن يلمس الأرض، وعلى أثر ذلك استعاد العملاق قوته على التو ووقع هرقل فى ورطة. وحين أدرك هرقل سر التجدد المعجز الذى يحدث للعملاق ظل رافعًا العملاق بعيدًا عن الأرض حتى تحقق له النصر عليه.

وكلنا مثل العملاق أنتيوس. فلزامًا علينا أن نعود إلى أمّنا الأرض لنستعيد قوتنا. وعلينا أن نحرص على إبقاء أقدامنا على الأرض. فحين نشعر بالضعف واليأس ونحس بالحنين إلى أن نهرب من كل شىء، يمكن أن نعود أقوياء يملؤنا الأمل بالتعامل مع كل شىء والتمشى معه.

وكل ما نمارسه من أنواع النشاط إنما هى نوافذ نفتحها على الحياة. وكل نافذة تفتح على منظر جديد هى منظر آخر للماء والخضرة والجبل والسماء. فالنساج والرسام والنجار والبستانى ومربو الكلاب كل منهم يرى الحياة من نافذة مختلفة. فمن ذا الذى يصل إلى الدرجة من الحمق التى تجعله يصمم بيتًا ليس فيه إلا نافذة واحدة حين تتوفر من حول المنزل المناظر الخلابة فى كل اتجاه؟

فهل هناك مستقبل للأشغال اليدوية وزراعة الحدائق وتربية الحيوانات الأليفة، حتى أتعلم أن أصنع شيئًا بيدى وأن أزرع البطاطا فى الماء وأن يكون لى كلب أو عصفور كناريا أو قط أو ماذا؟

فليكن فى علمك: أن المستقبل من الكبر بالدرجة التى تريد أن تجعله عليها. فهل هناك مستقبل للعلم أو الفن أو الأدب؟ حسنًا، فكل هذه تبدأ بذلك النوع من النشاط الذى سبق وصفه لك. وحين يبدأ المرء فى الانتماء إلى الحقيقة والواقع فلا حد لإمكانياته إلا برغبته هو فى مواصلة السير. فأى إنسان يعلم الكثير عن تاريخ أى صناعة أو فن فإنما يعلم الكثير عن تاريخ البشرية. فأى فرد يفهم فى كيمياء النبات عنده علم بالكيمياء. وأى فرد يستغل النسيج كفن يجد أمامه ميدان الفن مفتوحًا على رحابه من فن العمارة حتى يصل إلى الزخرفة الداخلية للمنازل.

القاعدة رقم ٣

اتخذ لنفسك صديقًا جديدًا - حيوانًا أليفًا - فإن أسعدته أسعدك.

وقد يقول قائل: «ولكنى لا أستطيع أن أثير اهتمامى بهذه الأشياء».

وليس هذا صحيحًا على إطلاقه. فالحقيقة أن هذا المعترض لم يكن له اهتمام حتى الآن. فلقد دُعِىَ لوليمة ولكنه تلكأ. فهو لم يدر بعد طِيبَ تلك المساهمة فى كل ما تقدمه الحياة.

فلكى يهتم الإنسان بشىء عليه أن يبدأ بإثارة اهتمامه. إنك حين تهتم بصنع ما يجب عليك عمله وصنعه، لا تصبح ذا اهتمام بل تصبح مثيرًا للاهتمام. فالشخص الذى يصنع الأشياء هو الذى يثير الاهتمام. ولكى تحظى بالانتماء إلى الآخرين وإلى الأصدقاء فعليك أن تبدأ بتوثيق صلتك بالأشياء والمواد أولا فتنميها وتزرعها وتربى الحيوان.

وكيف يؤدى هذا إلى الصداقة والشعبية؟.. هو موضوع الفصل التالى.